الكشف عن الأبعاد الاجتماعية الكامنة للمجتمع والتخطيط المجتمعي

HUANG Yi

الملخص. منذ ترسيخ مفهوم «المجتمع المحلي» في الصين خلال ثمانينيات القرن العشرين بوصفه فئة إدارية وأداة عملية للسياسة العامة، ظل مجال التخطيط يفتقر إلى بحث معمق في العلاقات الاجتماعية والمكانية والزمانية التي ينطوي عليها هذا المفهوم. وفي الوقت نفسه، اتسم التخطيط المجتمعي والعمل المحلي بنزعة واضحة إلى معالجة أوجه النقص المادي. ولمواجهة هذا القصور، تجمع الدراسة بين التحليل النظري والتحليل التجريبي للكشف عن الأبعاد الاجتماعية للمجتمع المحلي وللتخطيط المجتمعي. فهي توضح العلاقة المفاهيمية بين المجتمع المحلي والمجتمع العام، وتحلل المضامين الاجتماعية للجماعة المحلية، وتنتقد تقويم أوضاع المجتمعات وفق معايير كمية موحدة، وتوسع استخدام منهج علم الأمراض الاجتماعية ومنهج التحليل الاجتماعي-الزماني-المكاني. كما تنتقل بين منظوري المجتمع العام والمجتمع المحلي لاستكشاف حلول مجتمعية للمشكلات الاجتماعية. وتعرض أخيرا القضايا الاجتماعية الكامنة في التخطيط المجتمعي، وتقترح إدماج التفكير الاستشرافي في الأبعاد الاجتماعية والبحث الابتكاري في القضايا الاجتماعية ضمن عملية التخطيط، بما يساعد على تجاوز الصعوبات التقنية الناجمة عن المشكلات الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: المجتمع المحلي؛ التخطيط المجتمعي؛ البعد الاجتماعي؛ نطاق الحياة المجتمعية؛ علم الأمراض الاجتماعية؛ المنظور الاجتماعي-الزماني-المكاني.

تصنيف المكتبة الصينية: -05 (2024) 1000-3363 :رقم المقال .A. DOI: 10.16361/j.upf.202405005 :رمز الوثيقة .TU984 0034-06.

نبذة عن المؤلفة: HUANG Yi، أستاذة ومشرفة على طلبة الدكتوراه في كلية العمارة والتخطيط الحضري بجامعة تونغجي؛ أستاذة في مختبر شنغهاي الرئيس لتجديد المدن وتحسين الفضاء؛ عضو مجلس الجمعية الصينية لعلم الاجتماع ونائبة رئيس اللجنة المتخصصة في علم الاجتماع الحضري؛ huangyi@tongji.edu.cn.

* مشروع بحثي استشاري رئيس لاتخاذ القرار تابع لحكومة بلدية شنغهاي الشعبية: «دراسة الحوكمة المصنفة للمجتمعات المحلية في شنغهاي» (رقم المشروع: 031-A-2022).

منذ أن عممت وزارة الشؤون المدنية الصينية مفهوم «المجتمع المحلي» سنة 1986، راكمت المدن الصينية قرابة أربعة عقود من التجارب في بناء المجتمعات المحلية، ودخلت الممارسة إجمالا مرحلة أكثر انتظاما ومنهجية. ومع ذلك، لا تزال الإجراءات المجتمعية تميل بوضوح إلى سد أوجه النقص في البيئة المادية. ويرتبط ذلك إلى حد كبير بالقاعدة الاقتصادية ومرحلة التنمية في البلاد، لكنه يعكس أيضا نقص الدراسات الأكاديمية وافتقارها إلى العمق فيما يتصل بالأبعاد الاجتماعية للمجتمع المحلي والتخطيط المجتمعي.

1 الإدراك المفاهيمي للمجتمع المحلي وتحديد أبعاده الاجتماعية

على الرغم من أن الحياة الاجتماعية والمحلية المرتبطة بالمؤسسات والاقتصاد والأيديولوجيا لم تنقطع في الصين، فإن مفهومي community وsociety بالمعنى الحديث وافدان. بدأ لفظ society يظهر في الصين في أواخر أسرة تشينغ بعد إدراجه سنة 1865 في ترجمة كتاب Henry Wheaton المعنون Elements of International Law. وبعد مرحلة من الصياغة والانتقاء، استقر في المصطلح الصيني الشائع بمعنى «المجتمع» [1]. أما لفظ community فقد دخل عبر الترجمة الصينية لكتاب Herbert Spencer، Study of Sociology (1873)، المنشورة سنة 1903. وكان مسار انتشاره أكثر تعقيدا، ولم يثبت المقابل الصيني المعاصر، أي «المجتمع المحلي»، إلا في ثلاثينيات القرن العشرين [2]. وبذلك دخل المفهومان إلى الصين بوصفهما مصطلحين مترجمين وخضعا لعملية اختيار وتكييف، كما أعيد اكتشاف مفهوم المجتمع المحلي في مرحلة لاحقة.

1.1 العلاقة بين مفهومي المجتمع المحلي والمجتمع العام وحدودهما

يعرف قاموس كامبريدج المجتمع بأنه جماعة كبيرة من الناس يعيشون معا بصورة منظمة، ويقررون كيفية التصرف ويتقاسمون الأعمال التي ينبغي إنجازها؛ ويمكن تسمية جميع سكان بلد واحد، أو عدد من البلدان المتشابهة، مجتمعا [3]. ويرى عالم الاجتماع الأمريكي Robert Park وزملاؤه [4] أن مصطلح «المجتمع المحلي» وصف مشروط للمجتمع أو للجماعة الاجتماعية: فعندما ننظر إلى أفراد المجتمع ومؤسساته من زاوية توزيعهم الجغرافي، يصبح المجتمع أو الجماعة مجتمعا محليا. وقد قصد Park من عبارته «Community is not society» إبراز الاختلاف بين المفهومين، لكنها تؤكد في الوقت نفسه وثاقة الصلة بينهما. ويتمثل الفرق الجوهري في أن المجتمع يتسم بالتجريد البنيوي، في حين يرتبط المجتمع المحلي بحدود جغرافية وإقليمية ومكانية ملموسة.

في عام 1935، دعا Wu Wenzao، وكان آنذاك رئيس قسم علم الاجتماع بجامعة ينشينغ، إلى «رؤية المجتمع وفهمه انطلاقا من المجتمع المحلي». فالمجتمع عنده مفهوم مجرد يصف الحياة الجماعية ويشير إلى المنظومة الكاملة للعلاقات الاجتماعية المعقدة، بينما المجتمع المحلي تعبير ملموس عن الحياة الفعلية للسكان في مكان معين؛ له أساس مادي ويمكن ملاحظته. وميز Wu بين المسح النموذجي، أي الدراسة الساكنة للمجتمع المحلي لفهم البنية الاجتماعية، ومسح التحولات، أي الدراسة الدينامية لفهم العمليات الاجتماعية؛ كما اقترح الجمع بينهما لإدراك التنظيم الاجتماعي والتغير معا [5]. غير أن هذا التقليد البحثي انقطع في أوائل خمسينيات القرن العشرين بعد إلغاء علم الاجتماع تخصصا ومهنة. وعاد مفهوم المجتمع المحلي مع استعادة علم الاجتماع في أواخر السبعينيات، لكنه لم يحظ باهتمام واسع من جديد إلا بعد ظهوره فئة إدارية في ثمانينيات القرن العشرين.

في الصين المعاصرة، تنص «آراء وزارة الشؤون المدنية بشأن تعزيز بناء المجتمعات الحضرية في أنحاء البلاد» الصادرة في نوفمبر 2000 على أن نطاق المجتمع الحضري يشير عموما إلى منطقة لجنة السكان التي عدل حجمها بعد إصلاح نظام المجتمع المحلي. وينطبق هذا التعريف على معظم المدن. أما شنغهاي، وبموافقة الوزارة، فتحدد المجتمع المحلي بمنطقة الشارع الإداري، أي المستوى الأعلى من لجنة السكان (الشكل 1). ولا يؤدي هذا الاختلاف الإداري بالضرورة إلى تغيير الوظائف التنظيمية الفعلية، لكنه يؤثر بوضوح في الكفاءة التنظيمية وفي التخطيط. ففي شنغهاي، يكون موضوع التخطيط هو مجتمع الشارع الإداري، بينما تقسم نطاقات الحياة المجتمعية التي تبلغ مدتها خمس عشرة دقيقة داخل مجتمعات الشوارع أو البلدات الكبيرة مكانيا أو الخاصة شكليا؛ ولذلك يوجد في شنغهاي 215 مجتمعا على مستوى الشوارع والبلدات، في مقابل نحو 1600 نطاق للحياة المجتمعية. وفي مدن أخرى، قد يتكون المجتمع المحلي من لجنة سكان واحدة أو عدة لجان ويكون أصغر نسبيا. ومن ثم يصبح تحديد نطاق مناسب الخطوة الأولى في التخطيط، وهو ما يفسر كثرة النقاشات حول ترسيم نطاقات الحياة المجتمعية وأساليب تحسينها مكانيا.

وخلاصة القول، يقدم مفهوما المجتمع المحلي والمجتمع العام موردين فكريين وأداتين مفاهيميتين مختلفتين؛ غير أن البعد الاجتماعي يكتسب مكانة بارزة على نحو خاص في دراسات المجتمع المحلي وفي التخطيط المجتمعي.

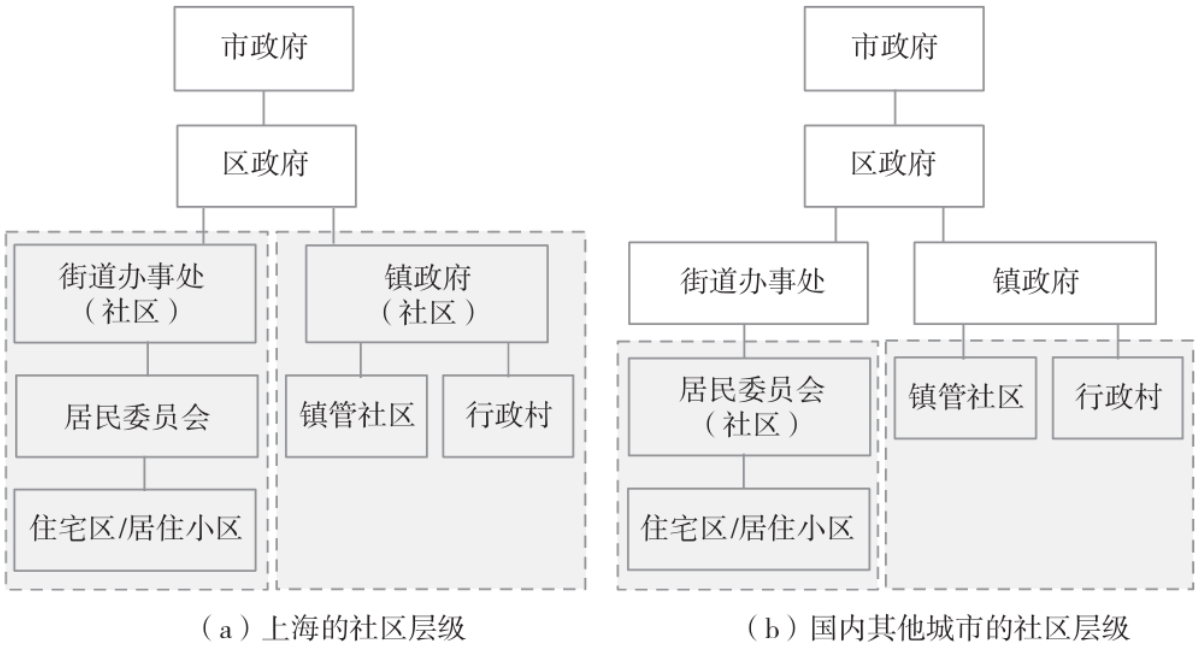

الشكل 1. الاختلافات في التسلسل الهرمي والنطاق المكاني للمجتمعات الحضرية في الصين

1.2 مستويات مضمون المجتمع المحلي

على الرغم من أن المجتمعات الحضرية الصينية الحالية محددة إداريا، فإن وثيقة وزارة الشؤون المدنية تبدأ بتعريف أكاديمي مألوف: «المجتمع المحلي جماعة للحياة الاجتماعية تتكون من أشخاص يقيمون ضمن نطاق جغرافي محدد». ومن بين التعريفات الكثيرة، يقترب هذا التعريف من مفهوم عالم الاجتماع الياباني Yokoyama Yasuo [6]، الذي يرى أن المجتمع المحلي يشغل حيزا

مكانيا محددا ويشكل جماعة شاملة للحياة. فما المضامين الدقيقة التي تتضمنها هذه الجماعة؟ في السياق الصيني الراهن، ينبغي فهم المجتمع المحلي بوصفه مجموعة تتراكب فيها أشكال متعددة من الانتماء، من بينها الانتماء الإداري والاقتصادي والثقافي.

1.2.1 جماعة الانتماء الإداري

تشكلت معظم المجتمعات الحضرية الصينية بقرار إداري لا بصورة عفوية. وعلى الرغم من أن التقسيم الإداري قد يستند إلى أسس تاريخية، فإن هذه الأسس تتراجع تدريجيا: فالأحياء القديمة المبنية ذاتيا تختفي في عمليات التجديد الحضري، كما شهدت مجتمعات وحدات العمل تغيرا كبيرا في السكان بعد إصلاح نظام الإسكان الاجتماعي. وقد تعدل الحدود الإدارية أحيانا تلبية لمتطلبات التنمية الاجتماعية والاقتصادية أو التنظيم والتعبئة السياسية. ولذلك ما زالت المجتمعات الحضرية تحمل طابعا إداريا قويا، وهو في ذاته شكل شائع من أشكال الانتماء الاجتماعي.

في السنوات الأخيرة، استخدمت بعض التنظيمات القاعدية للحزب حوامل مادية ومكانية، مثل الحدائق المجتمعية الصغيرة، لتنسيق جهود السكان المتطوعين والمؤسسات والشركات المحلية في معالجة مشكلات البيئة والصحة بكفاءة أعلى. وقد حظيت هذه المبادرات بترحيب السكان. وهي تمثل شكلا من البناء والحوكمة والانتفاع المشترك بقيادة الحزب، وتتيح مسارا محتملا لتحويل الانتماء السياسي والإداري إلى مضمون فعلي للجماعة المحلية.

1.2.2 جماعة الانتماء الاقتصادي

منذ إدخال نظام الإسكان التجاري في ثمانينيات القرن العشرين وإصلاح الإسكان الاجتماعي في التسعينيات، أصبح المجتمع المحلي يظهر بصورة متزايدة بوصفه تجمعا للأسر والمؤسسات والشركات يتشكل وفق الموقع على المستوى الجزئي أو المتوسط داخل المدينة، وقيمة العقارات، وهرمية المرافق والخدمات العامة. ويتكون الانتماء الاقتصادي من مؤشرات مادية، مثل ظروف السكن وتجهيز المرافق وتوفير الخدمات، ومن مؤشرات اجتماعية واقتصادية، مثل مستوى الاستهلاك الذي يدعم المرافق ومكانة أفراد المجتمع أو الأسر. ويعد التوافق بين قدرة العرض وقدرة المستهلكين سمة أساسية لهذا الانتماء.

إن تعبير «المجتمع الحضري القديم» المتداول حاليا فئة زمنية واقتصادية في آن واحد، وغالبا ما يرتبط بانتماء الفئات العاملة التي أقامت في مجمعات الإسكان العام في مرحلة تاريخية محددة. وفي الأحياء التي يهيمن عليها السكن التجاري الراقي، وكذلك في مجمعات الإسكان الميسر الكبيرة، يبني السكان ضمنيا تعريفا ذاتيا مشتركا بالاستناد إلى مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية. وعلى مستوى المدينة، يقيم السكان من خارج المجتمع محليا بعينه، إيجابا أو سلبا، اعتمادا على الموقع وأسعار السكن. ويمكن لهذا الانتماء الاقتصادي، الذي ينطلق من العقار والبيئة السكنية، أن يتحول بمرور الوقت إلى جماعة محلية أكثر اكتمالا.

1.2.3 جماعة الانتماء الثقافي

تساعد الأنشطة الثقافية العفوية أو المنظمة لبعض السكان، مثل الرقص والرسم والقراءة، على تعزيز التفاعل الاجتماعي وإعادة بناء شبكات التعارف على أساس الاهتمامات المشتركة. لكنها لا تساوي الانتماء الثقافي الجماعي، ولا ترتبط به دائما ارتباطا مباشرا. فهذا الانتماء يتشكل على نحو أعمق من خلال الاحتفالات التذكارية والطقوس والعروض الجماعية، والأماكن التي تحتضنها، والممارسات المرتبطة بالنسب أو الإثنية أو الدين. وتنتج الفعاليات الاحتفالية وعيا خاصا بالمجتمع المحلي، وتحافظ على سماته الاجتماعية ورموزه الثقافية؛ وهي، مثل «نصوص» حية غير مكتوبة، تصوغ جماعة متخيلة بصورة جماعية.

يرتبط الانتماء الثقافي أيضا بأنواع استعمال الأرض وطرائقه، لكن هذا الجانب تعرض لتجاهل واضح. ويقدم نوعان تقليديان من الأراضي مثالا على ذلك: الأراضي الخيرية في الصين والأراضي المشتركة في الخارج. ففي المجتمعات الريفية الصينية، خصصت الأراضي الخيرية لإعالة أفراد العشيرة أو الفقراء. وقد تأتي من تبرعات خاصة، أي «أرض الرجل الفاضل الخاصة التي يجعلها مشتركة لعشيرته»①، أو من تخصيص حكومي. وقبل تأسيس جمهورية الصين الشعبية، شجعت حكومة المنطقة الحدودية شنشي-قانسو-نينغشيا إنشاء تلك الأراضي والمخازن المشتركة لتأسيس خدمات الإغاثة الاجتماعية②.

أما الأراضي المشتركة في الخارج فتؤدي وظيفة مشابهة جزئيا. فقد كانت في الأصل أراضي مشتركة للقرى، مثل تلك التي يشير إليها مفهوم «مأساة المشاعات». ووجدت أيضا في المدن. ففي قلب بوسطن، لم يجر تطوير مساحة تبلغ 48 فدانا، أي نحو 19.42 هكتارا، تضم حديقة ومقبرة وأرضا مشتركة أصلية، وظلت مخصصة للاستعمالات غير الاقتصادية. وفي دراسة Walter Firey [7] لاستعمال الأرض في بوسطن، نسب إلى الحديقة والمقبرة والأرض المشتركة دلالات قوية من «العاطفة» و«الرمزية»، وعدها متغيرات بيئية مهمة في تشكيل الفضاء الحضري. وسواء تعلق الأمر بأراض تؤدي وظيفة الإغاثة الاقتصادية أو بأراض مشتركة تحمل قيمة بيئية وعاطفية، فإن الأرض تعمل حاملا ماديا يركز المشاعر والقيم والرموز الثقافية والنظام الأخلاقي والتعاون المجتمعي.

1.2.4 تعدد أشكال الانتماء المجتمعي

تحدد درجة تراكب أشكال الانتماء المختلفة وتشابكها مستوى تماسك المجتمع المحلي. ففي المجتمعات الإثنية أو العرقية أو المهاجرة، تؤدي الهوية الإثنية والمحلية دورا إضافيا. وغالبا ما تجمع المجتمعات الدولية بين الانتماء الاقتصادي والثقافي، كما تميل المجموعات الكوزموبوليتية إلى اختيار أحياء تلبي حاجاتها الثقافية والنفسية إلى جانب حاجاتها المادية.

ولا يعني تعدد الانتماءات أنها متساوية في الأهمية. فـ«الهوية تتكون من سمات متعددة المستويات، ويحدد الفرد، بوصفه مفسرا، ترتيبها وأولويتها» [8]. ويغرس الانتماء المجتمعي الفرد في بيئة اجتماعية وزمانية ومكانية محددة، ويمكن أن يصبح مرتكزا للطمأنينة الجسدية والنظام الداخلي. ومن خلال قيم المجتمع المحلي، يواجه الفرد عدم اليقين وعدم الاستقرار في العالم الخارجي؛ وهذه إحدى الدلالات التي تدفع المجتمع المعاصر إلى استعادة قيمة الجماعة المحلية.

تمتلك المجتمعات الحضرية الصينية اليوم أساسا مؤسسيا للانتماء الإداري وأساسا ماديا للانتماء الاقتصادي. أما الهدف الأهم فهو تكوين انتماء ثقافي مع مرور الوقت؛ فبه وحده تصبح الجماعة المحلية مكتملة الدلالة.

2 مناهج تحليل المجتمع المحلي وتجلي البعد الاجتماعي

تركز جهود بناء المجتمعات والعمل المحلي والتخطيط حاليا على «المؤشرات» المادية والمكانية. وهذه مهمة أساسية ومهمة، غير أن البحث في الأسس الاجتماعية لا يزال ضعيفا. وينتج عن ذلك معالجة مجزأة للمشكلات، على طريقة «علاج الرأس عندما يؤلم الرأس والقدم عندما تؤلم القدم»، أو معالجة سطحية لا تصل إلى الجذور. ويمكن لتوسيع منهج علم الأمراض الاجتماعية والتحليل الاجتماعي-الزماني-المكاني أن يثري أدوات التشخيص المتاحة.

2.1 حدود التقويم الكمي القائم على مطابقة المعايير

يسهل تحديد المؤشرات والحكم الكمي على مدى مطابقتها توحيد التنفيذ على المستوى الوطني أو البلدي. غير أن هذا الأسلوب ينطلق من افتراض صريح أو ضمني بأن القدرة المحلية على الحكم غير كافية. وإذا لم تعزز هذه القدرة بوسائل أخرى، فإن التطبيق الآلي للمعايير الموحدة على أوضاع اجتماعية ومحلية معقدة سيظل يولد مشكلات جديدة.

في عام 2023، عممت شنغهاي إعداد خطط عمل لنطاقات الحياة المجتمعية التي تبلغ خمس عشرة دقيقة. وفي المناطق المحددة بالحدود الإدارية، يكون توزيع الخدمات الإدارية سهلا نسبيا. لكن عندما يتعلق الأمر بخدمات غير إدارية، قد يؤدي رسم «النطاق» إلى تفكيك مجتمعات محلية محتملة لكنها حقيقية، تكونت على أساس الانتماء الاقتصادي أو الثقافي. وفي تقويم المرافق المرتبطة ببرنامج «الملاءمات الخمس»—السكن والعمل والترفيه والتعلم والشيخوخة—يؤثر تحديد النطاق وحدوده بقوة في الحكم على مطابقة المعايير، ثم في قرارات استكمال المرافق.

فوفقا للمعايير الموحدة، يعد عدد رياض الأطفال والمدارس الابتدائية والإعدادية في مجتمع شارع Changbai Xincun بمنطقة Yangpu غير كاف، مع أن العرض الفعلي يلبي الطلب. وينشأ التباين بين الحاجة «المحسوبة» والعرض الواقعي من تاريخ التقسيمات والاندماجات الإدارية. ومن ثم يفقد التقويم الآلي دقته ويصنع طلبا وهميا. لذلك قد تتعارض عملية تحديد «النطاق» و«الحد»، وكذلك التقويم بالمؤشرات، مع استمرارية الحياة الاجتماعية الحضرية إذا انفصلت عن البعد الاجتماعي.

2.2 منهج علم الأمراض الاجتماعية

شهدت مدن كثيرة في السنوات الأخيرة إجراء تشخيصات حضرية تركز أساسا على مشكلات النظم المادية. غير أن علم الاجتماع الحضري طور قبل نحو قرن منهج «علم الأمراض الاجتماعية» لتشخيص ظواهر الحياة انطلاقا من الخبرة اليومية المباشرة. وكان تطبيقه الأشهر حركة المسوح الاجتماعية في شيكاغو خلال عشرينيات القرن العشرين؛ إذ نظر Robert Park وأعضاء مدرسة شيكاغو إلى المدينة بوصفها مختبرا اجتماعيا أو عيادة [9].

كانت هذه التحليلات التجريبية تبدأ عادة بمسح المجتمع المحلي ثم توسع الاستنتاجات إلى عمليات المجتمع الحضري. وبعبارة أخرى، تظهر المشكلات العامة والعوامل البنيوية التي تؤثر في الأفراد جزئيا في صورة «أعراض» محلية. وبعد قرن، ما زالت بعض المشكلات البنيوية قائمة، وظهرت أخرى جديدة. وعلى الرغم من انتقاد منهج مدرسة شيكاغو لما ينطوي عليه من نبرة سلبية، فإن استعادته وتوسيعه في زمن التحولات السريعة وعدم الاستقرار العالمي وتصاعد النزاعات يتيح تحليل الحياة اليومية في العصر التقني، والصراعات الاجتماعية، والفروق الجيلية والجندرية والمكانية من خلال المجتمع المحلي. وبذلك يمكن تتبع المسار التاريخي للأمراض الاجتماعية واستشراف اتجاهات المجتمع المحلي في المستقبل.

2.3 منهج التحليل الاجتماعي-الزماني-المكاني

في ظل التطور التقني المتقدم، يكتسب الزمن والفضاء خصائص جديدة. فاجتماع رأس المال والسلطة والتكنولوجيا يرقمن الحياة الحضرية ويميكنها، ويستنزف طاقة الأفراد وانتباههم، ويتغلغل بدرجات مختلفة في الحياة المجتمعية. ويساعد المنظور الاجتماعي-الزماني-المكاني على تفسير الظواهر والعمليات الاجتماعية المعقدة، والتعرف إلى وقائع ومشكلات جديدة داخل المجتمع المحلي.

يشرح هذا المنهج السلوك الاجتماعي في الزمن والفضاء الحضريين. ويستند التكيف بينهما إلى قدرة الفرد على التحمل. فسكان المدن الكبرى يتحملون أوقات تنقل أطول، ومسافات أكبر، وحيزا أكثر ازدحاما. ولتعويض الطاقة المستهلكة في «العمليات المكانية-الزمانية» اليومية، يقلل الأفراد استثمارهم في «العمليات الاجتماعية». وهذا يساعد على تفسير فتور العلاقات في المجتمعات الحضرية الكبرى: إذ يصبح الحد من التفاعل غير الضروري استراتيجية للحفاظ على الطاقة.

وعلى العكس، مع تراجع التنقل اليومي لعدد متزايد من كبار السن وازدياد «وقت الحياة» و«الوقت الحر» و«الوقت الشخصي»، لا بد من تصريف الطاقة داخل المجتمع المحلي للحفاظ على الصحة الجسدية والنفسية. ويغدو التواصل العاطفي والارتباط الاجتماعي حاجة أساسية. لذلك قد تتحقق في المجتمعات الحضرية المعاصرة توقعات Lewis Mumford [10] بشأن استعادة سكان المدن لعلاقات جوار قديمة وحرة ودافئة.

ومن هذا المنظور، لا تمثل نطاقات الحياة المجتمعية التي تبلغ خمس عشرة دقيقة في الصين ونماذج «مدينة الخمس عشرة دقيقة» المطبقة في باريس وبروكسل وملبورن وغيرها مجرد حلول تقنية لمدينة منخفضة الكربون، بل هي أيضا خيار اجتماعي لمجتمع يتقدم في العمر. كما يساعد الجمع بين التحليل الكمي والنوعي، بما يتيح فهم الأبعاد الاجتماعية والزمانية والمكانية والتعبير عنها بصورة كلية، على تعميق دراسة المجتمع المحلي ودمج التخطيط.

3 حل المشكلات الاجتماعية من خلال المجتمع المحلي

تسمح العلاقة الخاصة بين المجتمع العام والمجتمع المحلي بتبديل المقياس والمنظور مرارا: فبعض «العلل» الاجتماعية يمكن علاجها محليا، وبعض القضايا الاجتماعية يمكن أن تجد استجابة في المجتمع المحلي. أي إن المشكلات الاجتماعية تحل داخل المجتمع المحلي ومن خلاله. ويتحدد البعد الاجتماعي للمجتمع بالأشخاص والجماعات والسكان في منطقة معينة، وتتجلى استدامته الاجتماعية في توازن البنية السكانية، بينما تتحقق استدامته الشاملة من خلال التوازن بين السكان والموارد والبيئة.

3.1 الاتجاهات السكانية والمشكلات المحتملة للمجتمعات المتقلصة

انتقلت الصين في السنوات الأخيرة من تعزيز البيئات الصديقة لكبار السن إلى البيئات الصديقة للأطفال والشباب وجميع الأعمار، لتشمل الرعاية تقريبا كل الفئات السكانية [11]. وتعكس هذه الرعاية في الوقت نفسه استجابة لمخاطر سكانية كامنة. إذ تمر البلاد بتراجع عام في الخصوبة، وانخفاض عدد الأطفال، وتقلص سكان بعض المدن والمجتمعات، وهي عمليات شهدتها أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان في تسعينيات القرن العشرين وتنطوي على مخاطر اجتماعية خطيرة.

سجلت بكين وشنغهاي بالفعل نزاعات تتعلق بمساكن لا وارث لها. وقد تزداد هذه الحالات في المجتمعات التي ترتفع فيها نسبة كبار السن غير المتزوجين أو شديدي التقدم في العمر. وينص القانون المدني على انتقال الممتلكات التي لا وارث لها إلى الدولة أو الجماعة؛ غير أن المحاكم المحلية وأجهزة الشؤون المدنية تحتاج إلى ابتكار آليات مناسبة لإدارتها. وقد يصبح إنشاء إدارة أو أمانة مجتمعية لتلك المساكن، بما يزيد موارد المنفعة العامة، مسألة جديدة كليا تتطلب تنسيق آليات مؤسسية واجتماعية واقتصادية وقانونية.

3.2 اتجاه سياسة بنية الأسرة والتعارض المحتمل مع تنوع عرض السكن

استجابة للشيخوخة وانخفاض الخصوبة، أعيد توجيه سياسة تنظيم الأسرة الوطنية. وتشجع «الإرشادات بشأن تحسين وتنفيذ تدابير الدعم النشط للإنجاب» (Guowei Renkou Fa [2022] رقم 26) الزوجين على إنجاب ثلاثة أطفال، وهو ما يتطلب استجابة من عرض السكن ووظائف المجتمع المحلي.

قبل سبعينيات القرن العشرين، تزامنت سياسة الأسر الكبيرة مع نظام الإسكان الاجتماعي وانخفاض المستوى العام للسكن. أما في المجتمع الميسور نسبيا اليوم، فإن زيادة حجم الأسرة، بما في ذلك وجود من يساعد على رعاية الأطفال، تتطلب مساحة أكبر وتنوعا في الوحدات الكبيرة، ولا سيما المساكن ذات ثلاث غرف نوم، وربما أربع. غير أن المخزون الحالي يلائم أساسا بنية الأسرة في عصر سياسة الطفل الواحد، ولا يتكيف جيدا مع الأهداف السكانية الجديدة. ولذلك ستشهد سياسة الإسكان «90/70» المطبقة منذ 2006 تحولا كبيرا. فقد ألغت Shenzhen أخيرا المتطلبات الخاصة بنسب أنواع الوحدات، وخففت شنغهاي أيضا النسبة الإلزامية للمساكن

الصغيرة والمتوسطة في شروط تخصيص الأراضي. وفي المستقبل، سيكون على المجتمع المحلي إدارة التوازن الدينامي بين أنواع السكن وأسعاره وبنية الأسرة.

3.3 نهاية الحياة وعلاقتها المحتملة بالوطن المنزلي

شهدت الصين خلال نصف القرن الماضي تحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية عميقة، وانتقلت سياستها السكانية من التقييد الصارم إلى تشجيع الإنجاب. ويرتبط ضعف أثر التدابير الأخيرة ليس فقط بتأخر التكيف النفسي، بل أيضا بتراجع العلاقات المستقرة بين الإنسان والأرض، والارتباط بالمنزل، والاستمرارية الأسرية في المجتمعات الحضرية. فقد أصبحت الحركة والمؤقتية وعدم اليقين سمات للحياة الحضرية وللحالة النفسية لسكان فقدوا جذورهم. وحتى كبار السن لا يستطيعون دائما التقدم في العمر داخل محيطهم المعتاد.

وبالمقارنة مع المؤسسات الكبيرة المتخصصة، يفضل كبار السن الرعاية المنزلية والخدمات القريبة؛ وبالمقارنة مع دور الرعاية البعيدة في الضواحي، يفضلون هم وأسرهم المرافق المدمجة في المجتمع المحلي. ويكشف منظور تاريخي أعمق أن الهوية المحلية تمتد عبر حياة الفرد كلها، بما فيها الذاكرة بعد الموت. ففي المجتمعات الريفية الصينية، لا تزال مقابر عامة موجودة على مستوى البلدة أو القرية الطبيعية، وأحيانا تتداخل مع الأراضي الزراعية. وفي المدن الأوروبية والأمريكية الشمالية، توجد إلى جانب المقابر الكبرى مدافن مجتمعية صغيرة قرب الكنائس، أو داخل الحدائق، أو بجوار الحرم الجامعي.

تؤسس هذه الأماكن، في منظور تاريخي طويل، ارتباط الأحياء بالعائلة والمنطقة والمكان؛ وهي رموز للعاطفة المجتمعية وأسس للوطن الروحي الحضري. وفي نهاية عام 2023 بلغ معدل التحضر في الصين 66.1%، أي أعلى من المتوسط العالمي بنحو عشر نقاط مئوية. وستدخل مدن كثيرة تدريجيا مرحلة مستقرة وناضجة. كما أن عصر كون «ثلاثة أجيال على الأقل من أسلاف معظم سكان المدن فلاحين» يقترب من نهايته، وستتمكن أسر أكثر من العيش والتكاثر والحفاظ على موقعها الاجتماعي حول مجتمع محلي واحد.

ومع تقلص سكان المدن وانخفاض الكثافة المحلية، قد يصبح إدخال مساحات تذكارية أو جنائزية صغيرة داخل بعض المجتمعات الحضرية، قادرة على تكثيف القيم الجمالية والتاريخية والأسرية، أحد المسارات لتعزيز الهوية المجتمعية والإحساس بالوطن المنزلي والاستدامة الاجتماعية.

4 القضايا الاجتماعية المحتملة في التخطيط المجتمعي

يفسر البحث عن حلول محلية للمشكلات الاجتماعية التقاطع التاريخي بين التخطيط المجتمعي والتخطيط الاجتماعي. فقد كان التخطيط الاجتماعي مؤثرا في الغرب من ستينيات القرن العشرين إلى ثمانينياته، في سياق ازدياد تعقيد الصناعة والعلم والمجتمع الحضري. وسعى المجتمع الأمريكي خصوصا إلى تطبيق أساليب عقلانية ومدروسة تناسب العصر العلمي على العلل الاجتماعية. غير أن مفهوم التخطيط الاجتماعي اعتمد كثيرا على مصطلحات غامضة الحدود. ومع أنه حرك معتقدات وقيم عميقة، فإنه نادرا ما فهم بصورة متكاملة. وكانت مهامه معقدة، ونطاقه واسعا، ومؤشراته كثيرة، وقد تتولاه الحكومة. أما التخطيط المجتمعي فله نطاق مكاني أكثر قابلية للسيطرة، وموضوع أوضح، وقدرة تنفيذية أعلى؛ ولذلك انتشر على نطاق واسع.

في مجال التخطيط الحضري والريفي، تظل البيئة المادية للمجتمع المحلي موضوعا أساسيا. غير أن إدماج التفكير الاستشرافي في الأبعاد الاجتماعية والبحث الابتكاري في القضايا الاجتماعية ضمن عملية التخطيط يسمح، في حالات كثيرة، بتجاوز الصعوبات التقنية الناجمة عن التناقضات الاجتماعية.

4.1 نطاق المجتمع المحلي وتحديد حدود التخطيط

كما سبقت الإشارة، يرتبط تكوين المجتمع المحلي وتعريفه ارتباطا وثيقا بنطاقه. وتعني تعقيدات الحياة الاجتماعية الحضرية واستمراريتها الزمنية وتكاملها المكاني والأشكال المحتملة للجماعة أن نجاح التخطيط يعتمد أيضا على طريقة تحديد حدوده.

تمثل خطط العمل لنطاقات الحياة المجتمعية التي تبلغ خمس عشرة دقيقة في شنغهاي شكلا من أشكال التخطيط الذي يستهدف تحسين الحياة اليومية. ويخلق مفهوم «نطاق الحياة» صورة اجتماعية-مكانية إيجابية. ومع ذلك، يجب على المخططين إدراك أن «رسم النطاق» و«كسر حدوده» عمليتان ضروريتان، وغالبا ما تتبع الثانية الأولى. ولأسباب تاريخية، تتحدد درجة رضا السكان عن الخدمات وفق انتماءاتهم المجتمعية المتعددة. لذلك ينبغي أن يراعي التشخيص وتقدير الفاعلية نطاقات الانتماء المختلفة—وغير المتطابقة دائما—للمديرين ومشغلي المرافق ومقدمي الخدمات والسكان.

ويتطلب هذا النوع من التخطيط تحليلا عميقا لمضمون الحياة الاجتماعية الحضرية في النطاق، والانتقال من منطق مجزأ يقوم على حدود الشارع الإداري إلى فهم متكامل للمنطقة الحضرية، والاستفادة من الآثار الممتدة للمرافق والخدمات، ورفع الكفاءة العامة

والمنفعة الاجتماعية. وينبغي أن يتجاوز «نطاق الدراسة» «نطاق التخطيط» أو العمل، الذي يكون إداريا غالبا، وأن يشمل على الأقل منطقة تأثير تقارب كيلومترا خارج الحد، بما يعادل مجال المشي المحتمل للسكان المجاورين.

كما يجب أن يربط التخطيط بين الأهداف القريبة والقصيرة المدى والأهداف البعيدة والطويلة المدى، وأن ينسقها مع أهداف المستويات المكانية الأعلى. وينبغي دراسة المجتمع المحلي ديناميا ضمن سياق إقليمي أوسع [12]، وربط تاريخه الخاص بتاريخ المجتمع الحضري.

4.2 التحسين التدريجي للوظائف المكانية والابتكار في ترتيبات الأرض

نظرا إلى تغير وظائف المجتمع المحلي، يمكن للتخطيط أن يستبق الاحتياجات من خلال تخصيص مناسب للأراضي الوظيفية، وتحسين الخدمات تدريجيا، وتعزيز الانتماء والشعور بالجماعة. ففي مركز شنغهاي، تنشأ مراكز بستنة مجتمعية ضمن هدف تهيئة البيئة للشيخوخة. كما أضافت بعض المجتمعات التي تضم حدائق بلدية أو على مستوى المنطقة مساحات وتجهيزات للحيوانات الأليفة. وتلبي هذه الوظائف الجديدة الاحتياجات المادية والروحية للحياة اليومية معا.

يعتمد مستوى المرافق والخدمات إلى حد كبير على العلاقة بين السكان والأرض. وسواء تعلق الأمر بالخدمات الأساسية أو بالخدمات النوعية التي تضاف وفقا للطلب، فإن ذلك يتطلب فضاءات وتجهيزات وأماكن كافية. غير أن المجتمع القائم يختلف جذريا عن «مجتمع المستقبل»، الذي هو في الواقع حي جديد: فحقوق الأرض موروثة تاريخيا، والاستعمالات محددة أو تخضع لرقابة صارمة من الخطط الأعلى، والمساحة القابلة للتعديل محدودة للغاية.

في مجتمع شارع Jinyang Xincun بمنطقة Pudong الجديدة، تتمثل إحدى أبرز المشكلات في أن أراضي خدمات كبار السن تشغل أقل من 1% من المساحة، رغم قوة الطلب. وفي الوقت نفسه، توجد في بعض مجتمعات شنغهاي مساحات كبيرة من الأراضي الصناعية التي تنتظر التحول، وهي عاطلة أو منخفضة الكفاءة. وفي المدن والمجتمعات التي انخفضت فيها الولادات بوضوح، يمكن توقع فائض في رياض الأطفال والمدارس الابتدائية خلال العقد أو العقدين المقبلين.

لذلك ينبغي أن ينطلق التخطيط من الاتجاهات الطويلة المدى، وأن يقترح تحسين استعمالات الأرض غير الرشيدة أو منخفضة الكفاءة. وقد تشمل التدابير تكثيف الاستعمال، ودمج الموارد والفضاءات، والتجديد الذكي والصحي للمرافق. ومن المهم أيضا أن يغذي التخطيط خطط المستويات الأعلى بفاعلية، وأن يدفع إلى تعديل سياسات الأراضي المحلية، بما يدعم تطور الوظائف ويوفر أساسا استشرافيا لتداول الأرض وتكوين الاحتياطيات.

4.3 السياسة المجتمعية الدقيقة وفاعلية التخطيط

يؤثر التمثيل والرقابة والتنظيمات ورأس المال المجتمعي—وهي أبعاد سياسية واجتماعية دقيقة متصلة بالطبيعة الاجتماعية للمجتمع المحلي—تأثيرا كبيرا في الحوكمة والتخطيط والتنفيذ.

4.3.1 التمثيل المجتمعي وتوازن المصالح

يعيد التخطيط المجتمعي توزيع الموارد والمصالح وإعادة تشكيلها بهدف تحقيق العدالة والتوازن، لكن علاقات القوة القائمة قد تقيد هذه العملية. ويعكس التمثيل تكوين السلطة وتوزيعها. فرؤساء مجتمع الشارع الإداري يجسدون صلاحيات ثلاثة مستويات من الحكم: ينفذون مهام البلدية والمنطقة، ويتخذون قرارات في الشؤون الداخلية. وتميل لجان السكان بقوة إلى الطابع الإداري وتركز على تنفيذ تكليفات مستوى الشارع. أما السكان، فإلى جانب بعض الحقوق الانتخابية، ما زالوا في معظم الأحيان عند مستوى المشاركة الأساسية.

ومع ارتفاع المستوى التعليمي والقدرة التقنية للعاملين في المجتمعات③، تتوسع صيغ الجمع بين المشاركة الرقمية والحضورية، والخدمة المنزلية، والخدمات الاجتماعية الرقمية. وقد نقلت بعض المجتمعات «الاجتماعات الثلاثة»—الاستماع والتنسيق والتقويم—إلى السحابة، وأنشأت آليات تشاور ديمقراطي هجينة. ومن خلال تخفيف قيود الزمن والمكان، تتيح هذه الآليات للشباب والمؤسسات المحلية المشاركة في البناء المشترك في أي وقت، وتوسع التمثيل، وتساعد التخطيط العملي على إيجاد نقطة توازن بين المصالح الاجتماعية والمكانية.

4.3.2 التعبئة العامة ودفع التنفيذ

لأن التخطيط المجتمعي ليس بعد تخطيطا قانونيا ملزما، فإن إعداد الخطط ودرجة تنفيذها يعتمدان بدرجة كبيرة على المدينة والمجتمع المحلي بعينه. ويعد الدعم الحكومي ومشاركة السكان ضروريين. وعلى المستوى المحلي، يمارس المسؤولون في الشارع الإداري التأثير الأكبر. أما المبادرات الصاعدة من السكان فتكون عادة جزئية وصغيرة، ويصعب أن تتحول إلى عمل شامل على مستوى

المجتمع المحلي، فضلا عن أن تنتج تخطيطا منهجيا. ولذلك يتطلب دفع التخطيط تكاملا اجتماعيا—وبلغة الإدارة، تنسيقا رأسيا ومكانيا يحقق التآزر—وتعبئة عامة داخل المؤسسات والتنظيمات وخارجها.

قد يبدو الدفع من أعلى إلى أسفل معتمدا على المسار الإداري التقليدي، لكنه يمتلك مزايا تنظيمية ومؤسسية واضحة. ففي شنغهاي، تحرك خطط نطاقات الحياة ذات الخمس عشرة دقيقة من الأعلى. وقد أصدر لجنة الحزب البلدية والحكومة البلدية «الإرشادات بشأن التعزيز الشامل لعمل نطاقات الحياة المجتمعية ذات الخمس عشرة دقيقة خلال الخطة الخمسية الرابعة عشرة» (Huwei Banfa [2022] رقم 29). وتتولى لجان المناطق وحكوماتها التنسيق، وتنفذ الشوارع الإدارية الأعمال، وتضمن اللجان والمكاتب القطاعية المؤشرات والتوجيه الفني والخدمات الاستباقية.

أدخلت بعض المناطق نتائج العمل في التقويم السنوي لمسؤولي الشوارع، مما عزز الدفع بدرجة كبيرة، ورفع على الأقل اهتمامهم الذاتي بالتخطيط. وهكذا أصبحت التعبئة داخل النظام المؤسسي قوة محركة مهمة. غير أن التعبئة العامة يجب أن تشمل جميع أعضاء المجتمع المحلي، وفي مقدمتهم السكان، لأن مشاركتهم الواسعة لا غنى عنها.

4.3.3 إدماج التخطيط في الحوكمة ومشاركة مخططي المجتمع المحلي

يمكن النظر إلى التخطيط نفسه بوصفه مرحلة وعملية «مدمجتين» في حوكمة المجتمع المحلي، توفران لها أسسا ودعما تقنيا. فالتخطيط يوحد الأهداف والرؤى ويبني التوافق. وخلال العملية، ينشئ المخططون حتما علاقات متنوعة مع المسؤولين والعاملين والسكان، ويسعون إلى فهم حاجاتهم ودمجها. ويعد بناء هذه العلاقات نتيجة للتخطيط وفي الوقت نفسه عاملا مؤثرا فيه.

اعتمدت مدن كثيرة نظام مخطط المجتمع المحلي. وتتعدد خلفيات هؤلاء المخططين ومصادرهم المهنية، وليسوا جميعا من مهنة التخطيط، ولذلك لا ينبغي اشتراط أن يكون كل واحد منهم قادرا على إعداد خطة كاملة. ومع ذلك، غالبا ما تكون درجة الإصغاء المتبادل بين أفراد المجتمع والمخطط مؤشرا على جودة المقترح ونتائج التنفيذ.

وتتدخل في العملية عوامل اجتماعية وسياسية دقيقة كثيرة: السمعة المهنية للمخطط وقدرته على بناء الثقة، والمرحلة السياسية التي يمر بها المسؤول الرئيس، وتوازن القوى داخل القيادة المحلية، وطرائق التفكير والتواصل الفردية. والوضع الأمثل هو علاقة تفاعلية متبادلة التعزيز: يقدم المخطط توجيها مهنيا عالي المستوى، بينما تستوعب الإدارة المقترحات وتحولها إلى ممارسة. ولذلك يحتاج الطرفان إلى تأهيل نظري وخبرة عملية.

وأخيرا، تتسم مشكلات كثيرة في الحوكمة القاعدية بطابع نظامي، مثل تنظيم النقل الحضري والإقليمي أو تعديل استعمالات الأرض، ولا يمكن حلها على مستوى الشارع أو البلدة. فمن جهة، ينبغي للمخططين نقل مطالب القاعدة ومقترحاتها إلى أجهزة التخطيط الأعلى من خلال آليات منظمة؛ ومن جهة أخرى، ينبغي أن يقدم التخطيط المجتمعي تغذية راجعة نشطة للخطط الأعلى كي تصبح أدق وأكثر رشدا. ومن ثم يجب أن يشارك مخططو المجتمع المحلي، بأكبر قدر ممكن من الاكتمال والمؤسسية، في التشاور بشأن التخطيط والتنمية والحوكمة.

5 الخاتمة

تتطلب الاستجابة للتحولات الاجتماعية المعقدة التعرف إلى المشكلات الاجتماعية الأساسية والمشكلات المحلية الملموسة، واتخاذها نقطة انطلاق لتخطيط موجه، وصياغة توقعات تكيفية لسيناريوهات متعددة. ويمنح هذا النهج التخطيط خيالا وتصورا استشرافيين يشملان الممارسة المادية والإنتاج الثقافي وإضفاء المعنى، ويساعد على إنشاء مجتمعات واضحة الهوية وقادرة على إنتاج الانتماء. وهذا هو هدف التخطيط المجتمعي الجيد.

تتنوع المجتمعات المحلية تنوعا كبيرا. ولا شك في أن الاهتمام الكامل بأبعادها الاجتماعية يوسع خيال التخطيط: فهو ينقل العمل من تحسين الفضاء المادي إلى إنتاج رأس مال مجتمعي ذي قيمة وشبكات اجتماعية ذات معنى. كما يوفر دعما راسخا للاستجابة السريعة للحاجات الاجتماعية والتعديل المرن لسياسات الأرض والفضاء المرتبطة بالمجتمع المحلي.

ملاحظات

① [أسرة تشينغ] YUN Jing، «سجل أراضي التعليم لعشيرة Hu»، 1802.

② LIN Boqu، حصيلة عام من عمل حكومة المنطقة الحدودية شنشي-قانسو-نينغشيا، 1944.

③ على سبيل المثال، يوجد في منطقة Yangpu بشنغهاي 2210 عاملين في شؤون المجتمعات، ومتوسط أعمارهم 44 عاما؛ ويحمل 89% منهم تعليما جامعيا أو ما يعادله، ويحمل 24% شهادة في العمل الاجتماعي. المصدر: «برزوا من بين 2210 أشخاص: أين تكمن جماليتهم"؟» Xinmin Evening News، 1 [N]، فبراير 2024، ص. 8."

المراجع

[1] تشنغ هونغلي. اكتشاف «المجتمع» [M]. غويلين: دار جامعة قوانغشي للمعلمين، 2023.

[2] هوانغ يي. التخطيط المجتمعي [M]. بكين: دار الصين لصناعة البناء، 2021.

[3] ماكنتوش، ك. «Society». [EB/OL] قاموس كامبريدج. https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/society.

[4] بارك، ر. إ.؛ بورغس، إ. و. مقدمة في علم الاجتماع [M]. بانتيانوس كلاسيكس، 2016.

[5] وو وينتساو. «دلالة ووظائف البحث الميداني في المجتمعات الحديثة». البحوث الاجتماعية، [M] (66)1935 // وو وينتساو. في صيننة علم الاجتماع. بكين: دار التجارة، 2010.

[6] يوكوياما ياسو. مدخل إلى علم الاجتماع [M]. ترجمة ماو ليانغهونغ، تشو أغن، تساو جوندِه. شنغهاي: دار شنغهاي للترجمة، 1983.

[7] فايري، و. «العاطفة والرمزية بوصفهما متغيرين بيئيين» [J]. المجلة الأمريكية لعلم الاجتماع، 1945، 148-140 :(2)10.

[8] ريانغ، س. الكوريون الشماليون في اليابان: اللغة والأيديولوجيا والهوية [M]. بولدر، كولورادو: وستفيو برس، 1997.

[9] غوتدينر، م.؛ هاتشيسون، ر. علم الاجتماع الحضري الجديد [M]. ترجمة هوانغ يي. شنغهاي: دار شنغهاي للترجمة، 2011.

[10] مامفورد، ل. المدينة عبر التاريخ: أصولها وتحولاتها وآفاقها [M]. هاركورت، 1968.

[11] وو تشيتشيانغ. «الكلمات المفتاحية السنوية العشر لتطور تخصص التخطيط الحضري والريفي ([J] «(2024-2023. مجلة التخطيط الحضري، 4-1 :(6)2023.

[12] هوانغ يي؛ وو تشانغفو. «تحليل التخطيط المجتمعي في الصين من منظور التجديد الحضري والحوكمة» [J]. دراسات التنمية الحضرية، 118-110 :(4)2020.

النسخة المنقحة: يونيو 2024

ترجمة بمساعدة الذكاء الاصطناعي